مقدمة

"إن نظرية عن الحرب يجب أن تكون أيضاً نظرية عن السلام"

الباحث الأمريكي ريتشارد نيد ليبو أستاذ الذكرى المئوية بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية

("لماذا تتحارب الأمم: دوافع الحرب في الماضي والمستقبل" – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ترجمة: دكتور إيهاب عبد الرحيم علي – العدد 403 – أغسطس 2013 – ص 27)

هذا الكتاب محاولة للإجابة عن سؤال مفصلي هو:

هل الإنسان مقاتل بـ "الضرورة"؟ أم مقاتل "عند الضرورة"؟

في مناخ الأزمة، وتحت تهديد الإرهاب الفكري، يصبح الكاتب مضطراً لأن يؤكد براءة ساحته وسلامة نيته قبل طرح بعض أفكاره، وفي هذا المناخ وحده تتحول المواقف والاجتهادات – وهي بطبيعتها متغيرة –

obeikandl.com

إلى مبادئ، وتتحول وجهات النظر إلى أديان، وتتحول "**الوطنية**" إلى عقيدة مغلقة يحرسها "**إكليروس**" وطني يعيد إنتاج سلطة الكنيسة في العصور الوسطى، وعندئذ تتحول الوسائل إلى أهداف نهائية مقدسة لا يجوز تقييمها وفقاً لكفاءتها، ولا يجوز الدعوة لاستبدالها.

وفي هذا المناخ تحمل بعض التعبيرات عبء صراعات وتصبح بعض الخيارات "**ملعونة**" لا يجوز لأحد أن يقترب منها، ومنها للأسف الشديد "**ثقافة السلام**"، فقد تم وضع السلام في ثقافتنا العربية في القائمة السوداء بسبب ظرف طارئ عمره لا يتجاوز عدة عقود، هو الصراع العربي الصهيوني، بينما ثقافتنا العربية الإسلامية على امتداد قرون كانت ثقافة سلام مع النفس ومع البيئة المحيطة ومع العالم. فجأة أصبحت "**ثقافة السلام**" تعبيراً مثيراً للريبة، وهي في الحقيقة ريبة في غير محلها، ليس فقط لأن السلام حالة نبيلة تتفق مع الفطرة والسواء الإنساني والبنية التشريعية التي أرساها الإسلام، بل لأن السلام حق وواجب إنساني في آن وحد.

إن "**السلام**" موقف وليس مبدأً، وكذلك "**الحرب**"، وكلاهما وسيلة لإحقاق الحق، فإذا أصبح السلام مبدأً تحول إلى استسلام، لكن

الحرب أيضاً إذا تحولت من وسيلة إلى غاية فهي انحطاط بالإنسانية من أفق التكريم السامي الذي ارتقت إليه بمنة إلهية، لتسقط في درك الحيوانية الذي تتحكم فيه الغرائز. فالحيوان لا يعرف المسافة التي تفصل بين الفعل ورد الفعل، وهذه المسافة بين الفعل ورد الفعل هي مناط التكريم وفضاء تحقُّق إنسانية الإنسان، والفاصل الذي يقف فيه الإنسان – الفرد أو الجماعة – ليسأل نفسه عن المشروعية القيمية والإجرائية لرد فعله، وكذلك البدائل المتاحة والأولويات وتراتبها.

وما من أمة إلا وتساهم بشكلٍ واعٍ مقصود، بل ربما مُخطَّط في تغيير ثقافتها جزئياً، لأن تصوُّر أن الثقافة مقدسة ينطوي على نوع من "**تأليه المجتمعات**"، فالثقافة التي هي نتاج تفاعل الإنسان مع البيئة المادية والوجود الاجتماعي المحيط به والتاريخ والمعرفة العلمية المتاحة له، وعوامل أخرى عديدة، هذه الثقافة، ليست نهراً منساباً يصحح حركته ذاتياً، ويحدد مجراه آلياً بل تنطوي على جانب كبير من القصدية. وفي مساحة القصدية هذه تقوم النخب بأدوراها بوصفها مؤتمنة على أمتها فتدعو لتأكيد سمات وتهميش أخرى. وعملية التهميش والتأكيد هذه وإن لم تبد بشكل ظاهر للعيان للفرد العادي إلا أنها معروفة للنخب السياسية

والثقافية، وعليها مدار الجانب الانتقائي من الثقافة، فكل جيل يختار من الماضي والحاضر، ولا يمكن – في أية ثقافة – أن تبقى كل المتناقضات متجاورة إلى ما لا نهاية.

وهنا المشكلة.

فثقافة السلام من القضايا التي "**تَقرَّر**" بشكل غامض تصنيفها بوصفها "**شجرة محرمة**" في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، وهو اختيار لم يكن ليعيننا على استراد حق مسلوب، لأن استرداد هذا الحق مرهون، فعلياً، بكفاءة "**الدولة العربية**" وليس مرهوناً بدرجة تشبُّع المجتمعات العربية بثقافة رفض السلام. وفي حقيقة الأمر فإن "**ثقافة السلام**" ليست مرادف "**ثقافة الاستسلام**"، وليست نقيض "**ثقافة المقاومة**"، بل نقيض:

"ثقافة العنف"

و"ثقافة العدوان"

و"ثقافة الكراهية"

و"ثقافة العسكرة"

و"ثقافة الصراع"

وجميعها مفردات تخرج الإنسان عن حالته الفطرية، وفي إطار هذه الحالة فإن العدوان يستثير الغضب، أما ثقافة الغضب التي تجعل هذه الحالة سمة دائمة وتمتدح ذلك وتسوغّه، فهي ثقافة معادية لإنسانية الإنسان، وخلفها تأتي متلازمة من الأعراض تأتي على الأخضر واليابس، ولا تتوقف عند ميدان العلاقة مع الآخر لتصبح ثقافة عنف شاملة: اجتماعية سياسية، لا تستثني الكيانات الأصغر، وصولاً إلى الأسرة الواحدة.

وعليه فإن إدارة عملية تغيير مخطَّط واعٍ محسوب لنشر ثقافة السلام، مطلب إنساني لأجل مستقبل الإنسان، ولا يجوز حشرها حشراً في سياق سياسي ضيق، وإذا لم يكن السلام مطلباً لنا كأفراد وكأمة فإن النتائج الكارثية للتصالح مع الصراع كمنطق ومبدأ، والعنف كوسيلة وتطبيعه، ستتجاوز آثاره بكثير العلاقة مع الآخر لتأكل المجتمعات العربية. فالعنف الاجتماعي المتصاعد ليس حصاد عوامل اجتماعية وحسب، والعنف السياسي الذي شهدته عدة أقطار عربية خلال العقود

القليلة الماضية هو نتاج عوامل عديدة في مقدمتها التغييب المتعمد المقصود المخطط الواعي لمعطيات بينها: "**ثقافة السلام**".

من ثم فإن هذه الدراسة هي في مساحة ما هو اختياري في علاقة الإنسان بثقافته، ولا تسعى لأن ترد على المنطق الإقصائي/ العدواني بمنطق إقصائي مقابل، فالعنف بمعناه الواسع، والحرب بصفة خاصة، كانا – على امتداد التاريخ الإنساني – جزءاً من حياة المجتمعات.

لكن ما تريد أن تقوله الدراسة أن تحويل "**الجزء**" إلى "**الكل**" تلاعبٌ بالمعايير، تترتب عليه نتائج خطيرة، وتحويل الأصل إلى فرع، والفرع إلى أصل، لا يثمر إلا ثقافة مختلة، وعندما تصاب الأمم بالدوار الثقافي نتيجة اختلال معايير التقييم فإن النتائج تكون مما لا يعلم إلا الله مداه.

والسلام..ختام

ممدوح الشيخ

openkandil.com